قراءة في رواية **عين الجوزة** للدكتور إبراهيم فضل الله

أ.د.دلال عبّاس

لماذا أشعر - وأنا ابنة جبل عاملة - وكأنّني قادمة إلى هنا من مكانٍ قصيٍّ، حاجَّة للتّبرّك به وبأهله؟ ومن أين يأتيني اليقينُ بأنّني كلّما توغّلت جنوبًا جنوبًا، أرى الأمكنة تزدان، وتزداد قداسةً، استعدادًا لليوم الموعود؟ إنّه هو هو هذا الجنوب؛ منذ قرون وبذورُ أرضِه علماءُ وأدباء وشعراء ومقاومون وشهداء منزرعون في جنباته .

أهلُه لم تدنّسهم البداوة الجاهليّة بأدناسها، حضرٌ همْ، جاؤوه منذ يوم بعيدٍ غائر في التّاريخ من اليمن، يوم انهار سدّ مأرب، وتفرّقت القبائل اليمانيُّة أيدي سبأ، مشرِّقةً ومغرِّبة، وكانت وجهةَ بعضها بلادُ الشّام، ومن هذا البعض قبيلةٌ اسمُها عاملة، استوطنت هذه البقعة الّتي سمّيت باسمها، وساكنت الكنعانيّين أقاربَها الأبعدين. وفي هذه البقعة من أرض الله الواسعة استحال الماء بيد المسيح(ع) خمرًا. وبعد سبعة قرون من هذا االحدث رُئيَ مُتجوّلًا فيه (جبل عامل) رجلٌ قادم من قلب الحجاز اسمُه أبو ذرّ الغفاريّ نُفي من عاصمة الخلافة بتهمة التّحريض على الثّورة، لأنّه أشار بإصبعه إلى مكامن الانحراف في الدّولة الإسلاميّة الفتيّة بأيدي عرب الجزيرة الّذين لم يغادروا عصبيّتهم القَبَليّة والعائليّة إلّا قليلًا، ولم يفهموا من الدّين إلّا الطّقوس المفتقدةَ المعنى. وبعد صفّين وخدعةِ التّحكيم وتآلب الطّلقاء والمنافقين، وأهلِ الظّاهر الجفاة على أمير المؤمنين، لجأ بنو همْدان وآخرون من أنصار عليّ إلى جبل عاملة ، يأسًا من صلاح أمر الأمّة. وظلّ هذا الجبل مثابةً وملجأً لأنصار عليّ وأهل بيته، كلّما دهمتهم داهيةٌ من الدّواهي الّتي كانت تعصف بالأمّة في ظلّ الأباطرة من الحكّام المسلمين، وإن تلقّبوا بغير ذلك من الألقاب . وفي جبل عاملة المضمّخ بتعاليم المسيح وتلامذته عبقت وصايا عليّ وتعاليمُه، حملتها إليه عقولُ مريديه وأهلِ بيته الهاربين من الاضطهاد جيلًا بعد جيل ... ولمّا انهارت الإمبراطوريّة الإسلاميّة المُتداعيةُ المشرذمة، تحت سنابك المغول، حمل جبل عاملةَ مِشعلَ العلم، وبات علماؤه يحملون العلمَ مرّة، ومرّة السَّيف، اقتداءً بعليّهم ... قرون متماوية، وهم يناضلون ويقاومون المعتدين بالسّيوف والأقلام. ولو لم يُدوّن بعضٌ من أبنائه شيئًا من تلك الأحداث لاندثرت، لأنّ دأبَ الآخرين الكُثرِ كان الحطَّ من قيمة المُراد طيلة تلك القرون ، فكيف بالمريدين ... ولمّا بلغوا آخرَ الطّريق، وانتصروا انتصارهم المعجزَ على إسرائيل، وبظهرها نصفُ الكرة الأرضيّة مسانداً، وقريشُ أيضًا وبدوُ الجزيرة الّذين لم يبرد غِلُّ صدورهم حتّى الآن، ونصف الكرة الآخر متفرّج إلّا قليلًا.

وكي لا تضيع تجربة هذه القرى الّتي كانت مسرحًا للقتال في تلك الحرب، كما يقول إبراهيم. ومنها قريتُه الّتي سمّاها باسم أحد معالمها "عين الجوزة" الّتي مثّلت بأطفالها وشبابها وشيوخها ونسائها وبناتها منارةً لعشّاق الحرّيّة والتّحرر، ولتظلّ هذه التُّجربة نِبراسًا يُنير طريق الأجيال القادمة ... وكي لا تضيع معالم هذه التّجربة بمرور الزّمن، ارتأى المؤلّف،وهو ابن هذه الأرض، وسليل ورثة الأنبياء، أن يُدوّنها نصًّا أدبيًّا روائيّا يؤرّخ لتجربة عاشتها، كما يقول، جماعةٌ من النّاس في ظلّ أوضاع حياتيّة قاسية.

لقد امتشق ابراهيمُ الكلمات سلاحًا مقاومًا، وحبك الكلمات روايةً تحكي انتصار المقاومة على

الغول الإسرائيليّ، الّذي ارتسم في أذهان العرب وأخيلتهم وحشًا أسطوريًّا مستحيلةٌ مقاومتُه، كما يقول خالد أحد شخوص االرّواية، وتحكي قصَّة انتصار دم الشّهداء على آلات الدّمار، وقصّة َ "مقاومة العين للمخرز" المتعدّد الرّؤوس، وقصَّة انتصار" شرقِ العابرين في الصّبح خفافًا" على الشّرق الجديد الّذي عمل من أجله الشّيطان الأكبر، وبشّرت به الغولة والّذين احتضنوها ...

هو أرادها أن تكون روايةً تاريخيَّة ، أو تاريخًا مَرْويًّا على ألسنة صانعيه، يؤرّخ أدبيًّا لآخر الحروب الإسرائيليّة على هذه الأرض، أراد أن يهديَها إلى أحفاده وأحفادهم وأترابهم في كلّ مكان، الّذين سيقرأون في القادم من الأيّام أنّ يهود الشّتات قد غادروا أرض فلسطين، الّتي كانوا قد سمّوها في أحد الأيّام اسمًا غيرَ اسمها، وسيسألون: كيف كان ذلك؟ وبما أنّ الشّبّان لا يحبُّون،عادة، دروسَ التّاريخ الجافّة ، فليتعرّفوا التَّاريخ قصَّة أو فيلمًا سينيمائيًّا مشوِّقا .

"عين الجوزة" روايةٌ مُكتملة العناصر والأركان، تتحدّث بأسلوب سهل ممتنع، وبكلامٍ فائق الدّلالات ؛ شعْرةٌ رفيعةٌ تفصل بين فصحاه وعامّيّته عن الحدث العظيم، والانتصار العظيم، من دون أن يستخدم المؤلّف الأسلوب الخطابيّ ليقول ما يريد، وبالكلمات نفسها يتحدّث عن مشاقّ الحياة في هذه البقعة من العالم المحاربِ أهلُها منذ القِدم، والمتروكين في كلّ شؤونهم، ليقتلعوا أشواكَهم بأيديهم، وقد فعلوا .

قلتُ إنّ "عين الجوزة" نصٌّ روائيّ قد تشابكت عناصره الأربعة أي الحدث والشّخصيّة والزّمان والمكان، وتعاضدت ، وإن بدا في أوّل الأمر حين قراءة العنوان أنّ "المكان" هو الأكثر أهمّيّة، لكنّ تاريخيّة الرّواية جعلت من الحدث بحلقاته المتسلسلة والمتتابعة الرّكيزة الأساس الّتي انبنى عليها العملُ الأدبيّ كلُّه .

الحدثُ الأساس هو حرب تمّوز 2006 ، المنبثق عن أحداث سابقة، تبدأ بمقاومة الفرنسيّين الّتي أعقبت مقاومةَ العثمانيّين، وما تخلّل ذلك من إشارات وتلميحات إلى التّصدّي للإقطاع المحلّيّين، وتوصيفٍ لِمَا كان يفعله الفرنسيّون من استباحةٍ للقرى الّتي يقتحمونها.

أما الزّمان فمتجذِّر في الماضي غيرُ منبتّ عنه، مفتوحٌ على المستقبل، حلقاتٌ متتابعة من المقاومة للمحتلّين، عزّزها الانتصار، ولم يُنهِها ...

المكان قرية الكاتب، وهذا معناه أنّ الأحداث مُعاشة، وليست مُتخيَّلة. وهي قرية من قرى جبل عاملة الغارق في تاريخيّته من رأسه حتّى أخمص القدمين، والّذي لا تتكرّر فيه الحوادث نفسها، وإنّما تتسلّسل و تتناسل، ويلد بعضُها بعضًا، لذلك، فإنّ االحدث الأخير فرادته كانت في عنفه وليس في يُتمه .

الشّخصيّة االرّئيسة أو البطل، أيضًا ليس وحده، بل معه لاعبون آخرون: سلالةٌ معبّرة عن كلّ االسّلالات الأخرى في هذا الجبل، صانعةٌ للأحداث لأنّها ابنةُ المكان، اختُصر فيها الزّمان، وكلّ الأزمنة .. ذكَر إبراهيم(الكاتب) هذا التّناسل على نحوٍ طبيعيّ سلس، وببساطة وعفويّة، ومن دون الكثير من الخطابة، والإنشاء المُستعار. قال من دون أن يقول: إنّ هذه المقاومةَ ورثها هؤلاء

كابرًا عن كابر، لم تأتِ من فراغ ولا بالمجّان، ما تغيّر هو نوع الأسلحة، وطُرُق المواجهة. الشّخصيّات تتناسل كتناسل الأحداث وتتابعها أو العكس، بوضوح لا يحتمل تأويلًا؛

2

.

فعبّاس و**حمزةُ**، بطلا القسم الأوّل، حفيدُهما **عليّ** بطل القسم الثّاني، ينتمي إلى عائلة فلّاحيّة من جهة الأب، وعلمائيّة مناضلة من جهة الأمّ. وعليّ ،وهو أحد أبطال المقاومة، أذموذجٌ عن أبطال آخرين، يُشارك أباه الفلّاح في عمله صغيرًا، وكبيرًا يُمسك الكتاب بيد، ويتدرّب على السّلاح باليد الأخرى(مجازً). عائلات الضّيعة تجمعها صداقاتٌ وتزاوجٌ ونضال، ما من اسم شخصيّة ورد في الرّواية إلّا وله دلالة أو دلالات؛ فالشّخصيّات المساعدة تُؤدّي أدوارًا ذات دلالة مقصودة، **أبو منصور** و **أبو رحمة** قبل بدء الاعتداءات الإسرائيليّة ينصبّ تفكيرهما على مستقبل ولديهما المتحابّين. تساهم سرديّة النّصّ في التّحضير لِمَا سيحدث على غرار الفيلم السّينمائيّ، التّفصيل في الكلام على كيفيّة بناء البيت، وعلى التّحضير للخطبة فالعرس، فولادة الحفيد المشترك . كلّ ذلك تحضيرًا للحدث الثّاني: تدمير البيت واستشهاد العروسين وطفلهما: صورة عمّا كان يجري من تدمير للمنازل، وقتلٍ مجّانيّ للنّاس الغافلين، والّذين لا ناقة لهم ولا جمل، عائلة تستشهد بأكملها ككلّ العائلات الأخرى الّتي استشهد أفرادها دفعة واحدة.

نمر أنموذجٌ للّذين هاجروا من قرى الجنوب إلى أميركا زمن العثمانيّين، وإلى أميركا وأفريقيا زمن الفرنسيّين، وذكر الكاتب بلمحة خاطفة طريقة الهجرة من قريته كونين إلى مصر . **نمير** المناضل السّابق، والمهاجر قسرًا،لم تُغيّر الثروةُ أخلاقه، ولم يتنكّر لابن ضيعته، وابن زميله في النّضال، حين زاره في بيروت ليستدين منه مبلغًا من المال لتطبيب ابنه عليّ الذي سيصبح بطل العبوّات في حرب تمّوز. أمّا **شريف**، فهو صلة الوصل بين الماضي والحاضر، شارك عبَّاسا الثّاني جدّ عليّ في مقاومة الفرنسيّين،كما شارك في النّضال ضد العصابات الصّهيونيّة في فلسطين، وابنه ناضل في صفوف المقاومة الفلسطينيّة في مواجهة الإسرائيليّين . مات شريف في بداية الاعتداءات الإسرائيليّة على الجنوب، وعبارة(كان تاريخًا بالضّيعة) ذات دلالة على نهاية هذا النّوع من النّضال ، وبداية النّوع الجديد الّذي سيؤدّي إلى الانتصار .

سرديًّا لم تعتمد الرّواية التّأريخ، بمعنى نقل الأحداث على لسان راوٍ عليم واحد كما هي الحال في دروس التّاريخ، وإنّما رُوِي التّاريخ الواقعيّ وكأنّه مُتخيّل سرديّ على لسان الشّخصيّات الرّئيسة، وألسنة الشّخوص المساعدين، ولا نسمّيهم الثّانويّين الّذين قالوا بعبارة واحدة أو بعبارات قليلة ما يُمكن أن يؤدّي تاريخيًّا وإعلاميًّا لكلام كثير...

في بيروت، وقبل التّحرير في العام ألفين يقول **خالد** قريب **بكري** صديق علي المقاوم:"كيف بدّك ياني كون بخير وأنتو فاتحين جبهة حرب" . عبارة واحدة كانت كافية للإشارة إلى ما كانت تتعرّض له المقاومة من انتقاد حتّى من مناضلين سابقين. أبو علي بعد التّحرير يبيع الفرن في الضّاحية بنصف ثمنه، مُتشوّقا للعودة إلى قريته، للدّلالة أنّ أهل الجنوب المهجّرين قسرًا، عادوا إليه بعد أن حرّروه بأيديهم. والدّور سرديًّا للاسترجاع في ربط الماضي بالحاضر، وهذا حاضر في زوايا النّصّ ومنحنياته. ومجرّد الكلام على نضال شريف في مواجهة العصابات الصّهيونيّة

في فلسطين، إنّما هو دلالة على مشاركة الجنوبيّين للفلسطينيّين في الهمّ االواحد، وحمل الجنوبيّن قضيَّة فلسطين حتّى قبل احتلالها، وعماد ابن شريف يناضل في صفوف المقاومة الفلسطينيّة، يتزوّج الثّورة ويقول"إحنا"، ويذهب في عمليّات داخل الأرض المحتلّة... ويروي الكاتب أيضًا،وبطريقة غير مُفتعلة كيفيَّة التقاء عليّ بعماد، صورة عن كيفيّة تجنيد الجنوبيّين في صفوف المقاومة الفلسطينيّة في بداية نشأتها. ولمّا بدأت الاعتداءات الإسرائليّة على الجنوب، تتصدّى قلّة قليلة للإسرائيليّين حال دخولهم، وتُستشهد دفاعًا عن أرضهم المتروكة عُرضةً لكلّ الرّياح، ثمّ يأتي وصفُ كيف نام القرويّون الآمنون في العراء حين واجههم القصف، وكيف تهجّروا قسرًا. وفي الكلام على تعرّف عليٍّ، وهو ابن خمس عشرة سنة عمادَ وأبا نضال إشارةٌ دالّة على تعرّف شباب الجنوب المقاومةَ من خلال المقاومة الفلسطينيّة، لكنّهم حين كبروا واعتمدوا على أنفسهم، حملوا السّلاح والأقلام معًا، كما كان أجدادهم يحملون الأقلام والسّيوف، فأنجزوا الحدثَ العظيم .

من خلال السّرد نتوقّع ما سيحدث في المستقبل، فتفصيل الكلام على بيت منصور، واستعداد أبيه وأبي عروسه للخطبة فالزّواج، ثمّ ولادة الطّفل، ومشاركة أهل الضّيعة في الأفراح، ليأتيَ حدثُ تدمير البيت في الاعتداء الإسرائيليّ، واستشهاد العروسين وطفلهما، وهم نيام، فاجعة ذات دلالة عامّة.

ومن خلال السّرد أيضًا كلامٌ غير مباشر على حرمان الجنوب من دون عبارات منمّقة مكرورة ونقاش سياسيّ، سيفهم القارئ في المستقبل ما نعرفه نحن، من خلال الرّسائل الخاطفة؛ والد الجدّ الّذي كان يعمل أجيرًا لدى الإقطاعيّ، وكيفيّة معاملة هذا الأخير للأجراء، ثمّ تصدّي الابن عبّاس للإقطاعيّ، والتّصدّي للفرنسيّين في الوقت نفسه. وحفيده علي هو الّذي يُشارك في دحْر العدوان في 2006 ..وعدم وجود مستشفيات في المنطقة حتّى ذلك التّاريخ سوى مستشفى وحيد بعيد من القرية، يفتقد إلى التّجهيزات اللّازمة، وحين تتكسر رِجل عليّ قبيل التّهجير يُجبّرها له المبيُّض أوّلًا، ثمّ مجبِّر آخر، وحين تتفاقم حالها ، ولا يوجد في المستشفى اليتيم مَن أو ما يمكن أن يُعالج به، يسافر به الأب إلى بيروت. واستخدام الفعل**"يسافر"** هنا دليل على المشقّة الّتي كان يكابدها أبناء الجنوب كلّما أرادوا أمرًا خارج قريتهم، وهو كلام غير مباشر على أنّ النّزوح إلى العاصمة كان إمّا للدّراسة أو للاستشفاء، ومن ثَمّ تعذّر العودةِ بسبب الاحتلال . ما لم يقله الكاتب مباشرة هو أنّ عليًّا لو لم يذهب إلى بيروت لَما أكمل دراسته الثّانويّة فالجامعيّة، ولولا التّحرير لَما انتشرت المدارس في الجنوب، ولولا انتصار تمّوز لَما كانت العودة النّهائيّة إلى الجنوب ...

ومن خلال االسّرد أيضًا والإشارات الخاطفة والوصف، ستتعرّف الأجيال القادمة شكلَ البيت القرويّ التّقليديّ الّذي عرفناه نحن، وأقسامَه وأغراضه، وستتعرّف العاداتِ والتَّقاليد الّتي كانت سائدة في قرى الجنوب، والّتي قصد الكاتب وصفَها، وإنْ بدا أنّ الوصف جاء عرضيًّا: استخدام مياه الآبار، والطّاولة الموضوعة في زاوية الدّار تتوسّطها حلقةٌ دائريّة، وُضعت فيها جرّة تتوسّط إبريقين من الفخّار، وما هي الأطعمة في الضّيعة، وما هي الأكلات الّتي كانت تحضّرها نساء القرية من حوائج الدّار للمقاتلين. وصف أزياء أهل الضّيعة: الثّوب الفضفاض الّذي تلبسه القرويّات وتحته السّراويل الّتي تزيّنها رسوم الورود، وتنتهي بكشكشين مستديرين حول كاحل كلّ

قدم. ولباس الرّجال: قميصٌ يكون أبيضَ اللّون بعد الانتهاء من العمل، وسروالٌ أسود، وعلى الخصر شملة صفراء، وعلى الرّأس حطّة بيضاء مُثبّتة بالعقال يُستبدل بها في أيّام الحداد حَطّة سوداء من دون عقال ... واستخدام المواعين النّحاسيّة، والمبيّض المجبّر، والصّوم عن بعض المآكل حِدادًا ... 4

هذه القضيّة الّتي تناولتها الرّواية: أي مقاومة أهل عين الجوزة، وتاليًا أهل جبل عاملة بأكمله للاحتلالات المتتالية، الّتي انتهت بالانتصار العظيم الّذي عرض الكاتب تفاصيل التّحضير له، وتفاصيل عمليّاته وما خلّف من دمار، عرضها الكاتب بأسلوبٍ شيّق انسيابيّ، بسيطةٍ ألفاظُه ومفرداته، لا فارق عميقًا بين عامّيّتها وفصيحها... وكلّها تحمل دلالات أبعد ممّا يوحي به الظّاهر، حتّى الأسماء: أسماء العلم إن جاءت مفردة فلأهمّيّة دور صاحبها، وإن استخدمت الكنيةُ فإيحاءً بأنّ المكنّى به سيكون له دور في ما بعد في سياق الرّواية...أبو منصور وأبو رحمة لا نعرف اسميهما لكن ولديهما منصور و رحمة وطفلهما الّذي لم يُسمّ سيكونون أوّل شهداء الاعتداءات الإسرائيليّة، وعبّاس ليس أبا محمود هو عبّاس، لكنّ ابنه محمودًا هو أبو علي، لأنّ عليًّا هو المقاوم، وشريف يبقى "شريف" مع أنّ ابنه مقاوم، لكونه كان سبّاقا في النّضال ...

قلتُ مرّة لأحد الطلّاب: إنّ ميزة الرّواية الجيّدة(بنظري)، أنّك تقرأها من دون القفز فوق الصّفحات، وتبقيها في مكتبتك لأحفادك، وفي مدرستك لتلاميذك، من دون أن تقتطع منها أوراقًا، لا تحبّ أن يقرأوها ... والأكثر من ذلك، أنّك تقرأها لا للتّسلية فحسب، بل لِما تتضمّنه من قيمة معرفيّة ، ورواية "عين الجوزة" هي كذلك .